

## الخيال والاستعارة في فلسفة نيتشه

الأستاذ: واحك مراد

جامعة الجزائر 02

### الملخص بالعربية :

لقد أقصى ديكرت الخيال من المعرفة لصالح الكوجيتو ، وينهزم الخيال امام العقل والصورة امام الفكرة ، اما باسكال فقد ذهب ابعد من ذلك لقولة ان المخيلة هي عدوة العقل لانها مصدر الخطأ والوهم ، وهكذا يتم نفي الخيال من الفلسفة من اجل الحفاظ على بعدها البرهاني المنطقي، أما الخيال فأصبح مرادفا للأسطورة مع نيتشه يعود الخيال مع الاستعارة

ومن جهة اخرى : إختلفت الأراء حول إشكالية الكتابة الفلسفية، أيجب أن تكتب الفلسفة بلغة استدلالية منطقية مستخدمة في ذلك لغة العقل والبرهان ، أم تستخدم في ذلك الإستعارة والشعر. فمنذ أن طرد افلاطون الشعراء من مدينته الفاضلة المتخيلة، أخذت العلاقة التي يجب أن تربط الخيال بالفلسفة تأخذ تجاذبات بين الفلاسفة، بين نافي لإرتباط الخيال بالفلسفة، كون هذا الحقل المعرفي يجب أن يحافظ على بعده المنطقي والبرهاني: المسار الذي ينطلق من ارسطو مروراً بديكرت وانتهاء بالوضعية المنطقية.في المقابل، هناك، اتجاه يرى ضرورة التفلسف بالأسطورة، والتفكير في الفلسفة من خلال الإستعارة والشعر: المسار الذي افتتحه الفيثاغوريين، مروراً بالفلاسفة الإشراقيين مروراً بنيتشه وانتهاء بدعاوى فلسفة هيدجر في ان يفتح الكائن على الصورة الشعرية، ليرى الوجود بطريقة أوضح وأنصع..ويعتبر نيتشه ممن تفلسفوا بالشعر والإستعارة ، كانت أغلب تصوراته محكومة بلغة استعارية وسواء كان ذلك في كتابه هكذا تكلم زرادشت أو كان ذلك في كتبه الأخرى، فإن الإستعارة النيتشوية كانت ضمن المشروع النيتشوي في تجديد الخطاب الغربي حول القيم، لم يكن الخيال بريئا من فلسفة نيتشه ، لقد كانت له وظيفة معرفية وهو ان يكون أداه في نقد العقل الغربي منذ جذوره السقراطية، وإذا

كان المشروع النيتشوي مشروعاً تبشيراً بفكر وقيم جديدة فهو بذلك يستخدم الخيال كأحد الأساليب الإغرائية للإقناع وجلب الأتباع .

الكلمات المفتاحية:

الخيال، المخيلة، الاستعارة، الشعر، الصيرورة، العقل ، النشوة، الرقص، الفرح، الجمال، النقد، التخيل، الصورة

### الملخص باللغة الأجنبية:

Descartes se méfie de l'imagination. Il la trouve limitée, ce que la raison ne serait pas. On peut certes imaginer beaucoup, mais il reste toujours des choses inimaginables. Combien ? On ne peut le savoir car toute vue de l'esprit échoue justement pour ce qui est inimaginable. Pascal à son tour critiquera l'imagination. D'après l'auteur des Pensées, elle tyrannise, en permettant à certains d'instrumentaliser la peur des gens pour servir leur pouvoir personnel, comme les juges, ou encore les prêtres. Ceux-ci, en ne faisant rien qu'avec apparat, inspireraient le danger, et cette inspiration ne serait rendue possible qu'avec l'imagination. Imaginer pour Pascal, c'est se fourvoyer dans des superstitions ou des croyances qui contraignent bien plus qu'elles ne libèrent. Mais tout avertissement sur le caractère pernicieux de l'imagination serait vain. On ne pourrait s'empêcher, selon Pascal, d'imaginer, parce que l'imagination n'est pas que la peur, elle a aussi des attraits, elle est une « maîtresse d'erreur et de fausseté, et d'autant plus fourbe qu'elle ne l'est pas toujours ». Nietzsche plus tard préférera le côté attrayant de l'imagination. Il la considère d'ailleurs comme libératrice. Pour lui, imaginer permet de s'échapper des calculs, de la logique implacable dans laquelle l'esprit n'a comme seule perspective que l'acquiescement. Avec la logique, il n'y a qu'une issue. Avec l'imagination, c'est tout le champ des possibles qui s'ouvre. Descartes et Pascal ont certainement raison en partie à propos de l'imagination, mais avouons que l'idée de Nietzsche est bien plus séduisante sans être plus erronée que celle de ses prédécesseurs mais la source d'une parole tumultueuse, vivante, et qui refuse de rendre des comptes. Danseur insolent qui se rit de la connaissance, qui n'a pas foi en elle, et la cherche pourtant de toute sa joyeuse humeur

## مقدمة:

يعتبر نيتشه ظاهرة فلسفة المعاصرة، ذلك أنه حاول التأسيس لفلسفة تقطع مع الميتافيزيقيا الغربية، الممتدة من سقراط إلى هيجل، ولاشك أن الأسلوب النيتشوي يلعب دورا في صنع هذه الظاهرة. وذلك لطبيعته الإستعارية التي جعلت منه موضوعا للتفكير والقراءة\*. ولا يزال هذا النص، يصنع الحدث التأويلي المعاصر. وجاءت الكثير من القراءات سواء تعلق الأمر بالكتابات الغربية التي تندرج ضمن ما يسمى بفلسفات ما بعد الحداثة أو بالكتابات العربية المعاصرة الشارحة للأفكار النيتشوية، فهذه القراءات لا تخرج من كونها، تأويلات وتمارين لفهم النص الأصلي، محاولة منها للقبض على معنى محتمل للشذرة الفلسفية النيتشوية. لكن في المقابل، التفكير الفلسفي يدعونا الى أن نتجاوز هذا النموذج في التفكير، هذا النموذج الذي لا يزال يصنع الحدث المعرفي / التأويلي باستمرار. نعتقد أن سر الفلسفة النيتشوية يقوم على استعمالها المكثف للإستعارة وتعرض مفاهيمها في شكل إستعاري وتخيلي تجعلها بمنأى عن الإحاطة المفهومية والتفسيرية، وتملصه من كل قراءة تدعي سبر اغوارها. والسؤال هو لماذا وظف نيتشه الخيال والاستعارة في فلسفته؟ هل يتعلق الأمر بطبيعة مشروع الفلسفي أم يتعلق الأمر بالبحث عن أسلوب جديد للفلسفة يكون قادرا على حمل مفاهيمها.؟ هل كان توظيف الخيال في فلسفة نيتشه بريئا؟

## 1- الإنفتاح نحو الغريزة:

يقود الحديث إلى معرفة طبيعة النقد الذي افتتحه نيتشه في إنتقاد مفهوم العقل. الذي تبنته الميتافيزيقيا الغربية عبر تاريخها، ولكن، من هو مؤسس، وواضع أطر البحث الفلسفي في العقل الغربي في نظر نيتشه؟. لا شك أن فيلسوفنا يوجه أصابع الإتهام نحو سقراط، إذ " مع سقراط تدهور الذوق الإغريقي لصالح الجدل: ما الذي حدث هنا في الحقيقة؟ " يتساءل نيتشه، ولكن يجيب بقوله: " هناك قبل كل شئ ذوق رفيع قد انهزم، ارتقى الرعاع بفضل الديالكتيك، قبل سقراط كانت السلوكات الجدلية تقابل بالرفض داخل الأوساط الراقية: كانت تعتبر عادات سيئة تقلل من شأن صاحبها وكان ينهي عنها بين الشباب، كما لا يوثق بكل من يتخذها أساسا لأرائه، الأشياء الشريفة من الناس لا تحمل حججها في يدها ... فكل ما يحتاج أولا إلى تبري، ليس بذى قيمة "1. ينتهي نيتشه إلى القول : لقد قضى سقراط بمعادلته

عقل + فضيلة = سعادة على أنماط من الوجود، ومن المعرفة، كانت تمجد الحياة، الراقصة المنتشية التي تدور في فلك الغرائز والبطولة والفرح، وانتفت بهذا الإقصاء السقراطي - من تاريخ المعرفة - فلسفات كانت بالإمكان أن تكون معبرة عن أبعاد الإنسان الحقيقية.

يوصل نيتشه انتقاده لمفاهيم العقل الميتافيزيقي، موجها ضرباته إلى المنطق الجدلي، ولهذه المقولات التي اعتاد العقل أن يفكر بها: كالعلة والمعلول والأخلاق الجماعية والجمال بالمفهوم الكانطي ومفهومي الخير والشر. هذه المفاهيم، هي من نتاج عقل كرس الوهم والخطأ، فهذا العقل اقتلع الحياة في بساطتها، وفي نقائها، وفي إندفاعها وكبحها، عبر هذه القواعد الصارمة في التفكير، إن المنهج الجدلي الذي استخدمه سقراط، هو منهج رعاعي، أرادت من خلاله قوى الإنحطاط التسلق، وأن تمتلك القوة وأن تصبغ العالم بصبغتها المنحطة. المسار الفلسفي الذي رسمه العقل السقراطي قضى على كل، ما ينتهي إلى الغريزة، وكبح العواطف، وأقصى المخيلة. لصالح استدلالات عقلية ضحلة، اختزلت الطبيعة البشرية. وهكذا نجد نيتشه ينتقد العقل كما أسست له الميتافيزيقيا الغربية المرتكز أساسا على مقولات الكائن، المطلق، الخير، الحق والكمال واستبدالها بمقولات جديدة كالتبديل والتحول والصورورة. يرفض نيتشه هذا العقل الذي لا يحوي ديناميكية في ذاته وهذا راجع في نظره إلى إقصاء الغريزة والمخيلة من الحياة، ثم إن طبيعة المعرفة، تتعلق بوضع الجسد، ف "أما أحكام القيمة التي يصدرها الأرسقراطيون فهي تفترض قوة الجسد، وصحة يافعة موفورة، فياضة. مع ما تتطلبه المحافظة عليها من حرب ومغامرة وصيد ورقص وألعاب حرب، وبعمامة كل ما يحتوي في نفسه على عمل شديد حربي"2

فلا يمكن فهم الإنسان بمجرد حده بحدود وتعاريف منطقية، كما لا يمكن موضعيته في واجبية أخلاقية كانطية تضبط سلوكه. بل، هو هذا الكائن الحامل لإرادات مختلفة: من إرادته في القوة التي تبحث عن الهيمنة والسيطرة، إلى نزوعه نحو البطولة والمخاطرة، ومن إرادته في تغيير تموضعات ذاته سواء في الخير أو في الشر، إلى نزوعه في الإنتشاء بالموسيقى والغناء، إنه هذا الكون الذي يشعره في داخله، "إن المفكرين الذي يفكرون أن الكواكب تدور في أفلاك دائرية ليسوا الأعمق: إن من ينظر إلى ذاته كمن ينظر إلى كون لا حد له ويحمل في أعماقه سبلا... فهي تصل إلى الخواء، إلى متاهات الوجود"3. هذه الرؤية إلى الداخل، وليس إلى

الخارج رؤية من دون شك، رؤية صوفية، "فالمعرفة الحقيقية هي معرفة الشيء من الداخل" 4.

وحده البعد الخيالي من الإنسان يستطيع، أن يتمثل الغرائز وأن يعبر عنها، وبما أن العقل لا يفكر في الأشياء إلا: بقواعد المنطق وبمفاهيم العلة وبالعلاقة السبب والنتيجة، فإن هذه الملكة غير قادرة على إدراك حقيقة الإندفاعات الإنفعالية للإنسان\*\*، فهذا الكائن لا يسعه العقل ليعبر عن ذاته، إنه كائن يتجاوز المنطق، وكل محاولة لوضعه بين أطر أو مبادئ هو إختزال لحقيقة الإنسان التي تتبدل وتتغير وتعرف الصيرورة. أما الفلسفات التي تضعه في مفاهيم قبلية باعتبارها تعبر عن الحقيقة الأحادية، فهي فلسفات تكرر الوهم والخطأ. إن اللحظة التي يعترف بها نيتشه، كالحظة سامية في تاريخ الحضارة الأوروبية: هي اللحظة اليونانية وبالتحديد لحظة ما قبل سقراط، التي جسدت مفهوم الإنسان في أعماق أبعاده وفي إمتداد تجلياته المختلفة. يسميها نيتشه الروح الديونيزية، التي يعبر عنها بقوله: " حين يغني الإنسان ويرقص فهو يعبر عن نفسه كفرد من أفراد المجتمع الراقى، يبدو وكأنه نسي كيف يمشي وكيف يتكلم وأن جناحين قد ركبا له ليرقص بهما في الأعالي، وكما أن الحيوانات الآن أصبحت تنطق والأرض تنبت عسلا ولبنا تراه الآن يعبر عن الأصوات العليا: فهو يشعر شعور الآلهة مادام هو ذاته الآن يختال متثنيا في طربه ورفعته كما رأى في نومه الآلهة تمشي "5 وإذا كانت الآلهة في الفن الأبولي تتجه إلى: القيم الثابتة وإلى المثل العليا، مكرسة مأساة مثالية بينما نجد المخيلة في الفن الديونيزي تمجد: النشوة، الرقص، الألم الهيج، الفرح المؤلم، الخطر، الموت السعيد، والقفز بالخيال. هذا الفن لا يعترف بالحدود وبالثنائيات، قاعدته الأساسية: أن يعبر بجلاء عن هذه الوضعية الإنسانية الراهنة والحالية في أبسط صورها ولكن في أعماق تجلياتها .

يتضح جليا أن التصورات الفلسفية النيتشوية متمفصلة على مفهوم "النشوة"، إذ أن النشوة هي الحياة الحقيقية 6 التي تثير الرقص. وفي الحقيقة: النشوة والرقص انفعالين داخليين في النفس، وحركة معينة للمشاعر تشعر معها الذات بالفرح وبالإمتلاء وبالإيجابية، أو بحد أسلوب نيتشه تمتلك فيضا من الطاقة الداخلية العارمة حيث تمتلك فيها الذات قوة تبحث فيها عن التدمير والتغيير والخلق وقلب القيم، فالنشوة هي التي تدفع إلى الرقص وإلى الشعور بالقوة، كما أن فيض القوة الزائد لا يوجه إلى تكريس القيم الموجودة بل وحسب نيتشه لا بد من القيام

بقلب للقيم .فأصل الفلسفة والعبقرية تعود، إلى اشد اللحظات التاريخية إمتلاء بالنشوة. فالمخيلة المدفوعة بنشوة الحياة لا تنتج إلا قيم تمجد الحياة، وتكون منتوجاتها التخيلية تبعاً لنشوتها الداخلية. فظهور الفلسفة عند نيتشه كان في شروط بهيجة وفي تفسيره كيف ظهرت الفلسفة يتجرأ نيتشه على القول: " إن الإغريق بالمقابل قد عرفوا أن يبدووا في الوقت المناسب، وهذا الدرس الذي يحدد اللحظة التي يجب أن نبدأ فيها التفلسف، فقد إدخروه بشكل أوضح مما أدخره أي شعب آخر. ليس المفروض أن نبدأ حين نكون تعساء، كما يتصور أولئك الذين يردون الفلسفة إلى الأشياء بل بالعكس يجب أن نتفلسف حين نكون سعداء، في مكتمل العمر مسلحين بالإبتهاج الغامر الذي يسببه النضوج الرجولي المتين والمنتصر، إن كون هذه اللحظة بالذات هي التي بدأ معها الإغريق بالتفلسف يعلمنا ما هي الفلسفة"7. إذن لا يمكن أن نتفلسف إلا إذا كنا منتشين، ممثلين بشعور الوفرة والإبتهاج، ومن ذاك الشعور بالبهجة والفرح تكون المعرفة صحية.

## 2 - الاستعارة في الفلسفة:

سبق وأن تطرقنا إلى القول، أن النشوة والاندفاع الغريزي، لا يمكن أن يتعلقهما عقل منطقي صارم، فهما يخرجان عن فهمه. كما لا يمكن كتابة وتسجيل هذه النشوة وفق ما يفهمه العقل، فالإندفاعات المنتشية تبحث عن أسلوب آخر يناسبها ويحملها لكي تتجلى. وتتكشف. ومن دون الشك إنها تنكتب عبر أسلوب شعري استعاري، متجاوزة أسلوب الكتابة المألوف، الذي ورثناه من الفلسفات التأملية، لأنه نتاج عقل نحوي منطقي، غير قادر على حمل مضمون مشاعر البهجة والفرح والنشوة. الإنتشاء يثير الخيال والمشاعر، وهو بهذا لا يقبل غير الإستعارة لكي يتجلى في أعرق صورته. ولكن لماذا الصور الاستعارية التخيلية ؟ الملاحظ أن نيتشه عرض معظم افكاره بواسطة الاستعارات والصور البيانية والبلاغية من أجل التأثير في القارئ، إنه لا يستخدم - أسلحة الفلسفة التقليدية ك: البرهان والحجاج قصد الإقناع. إن هذا في رأيه لا ينفع، ولأنه يطمح لكي يكون لفلسفته خلوداً، زمانياً عابراً للعصور، يتجاوزها فيها خلود الفلسفات التاريخية والشرائع الوضعية والسماوية، فإنه سيلجأ لكي يتكلم بأسلوب شبيه بأسلوب المسيح، الأسلوب الذي له تاريخ وذاكرة في وجدان وخيال الاتباع. لقد خاطب نيتشه اتباعه عبر زرادشت: "إنني أطلب

رفاقا يتبعونني، لأنهم يريدون أن يتبعوا أنفسهم أيان توجهت ..إنني ما جئت أخلص خرافا عديدة من القطيع، إلي بالرفاق، إنني أطلبهم مبدعين ولا أطلبهم جثنا وقطعانا ومؤمنين ، سأهتف بنشيدي للمعزولين ولمن يشعرون بمثنويتهم في انفرادهم. إنني سأملأ بغبطتي قلب كل من له أذنان إلى ما لم تسمعه أذن بعد"8. إنه أسلوب يذكرنا بأسلوب الإنجيل في عرض إيمانه المسيحي ومواعظه الأخلاقية.

صحيح أن نيتشه لا يريد أن يكون نبيا، ولكن من دون شك يطمح أن يكون فيلسوفا نبيا مبشرا بقيم جديدة، وهو بهذا سيلجأ إلى لغة الخيال، لغة المواعظ الدينية والخطابة، اللغة التي يستخدمها الأنبياء والشعراء والخطباء، اللغة التي أثرت في النخب والجموع عبر منعطفات التاريخ الروحية الحاسمة. وتوضح فكرة: أن أسلوب نيتشه في عرض مفاهيمه الفلسفية وفي تقديمه لقيمه الجديدة، إتخذ اسلوبا تبشيريا، عهدناه عند هؤلاء المبشرين: بدين أو بفكرة أو بايديولوجيا، مستخدمين في ذلك أسلوب النشيد والتمثيلات الحسية والتشبيهات والإستعارات، لأن هذه اللغة بإيقاعها العاطفي والموسيقي تجد مكانا عميقا في وجدان الأتباع. إنه اشد الأساليب إقناعا "أي التركيز على الفن الجميل على القول الصادق بتسخير الناس بتسخير الكلمات عن طريق المجاملة والإغراء وهو شكل من أشكال العنف اشد خفاء"9. إن المشروع النيتشوي بوصفه مشروعاً يهدف إلى قلب القيم الغربية، في محاولة منه لتغيير مسار هوية الفكر الأوروبي بتقويض أسسه بالكامل، ودفعه بالتالي نحو اتجاه آخر، فإن هذا المشروع لا يمكن أن يتخذ لغة العقل والمنطق ليعرض دعواه، بل يتطلب الأمر بعرض الدعوى الجديدة بواسطة الخيال والإستعارة وبصورة جمالية، ينتصر فيها الجانب الايقاعي والموسيقي والمفرح، لتؤثر في القارئ والمتلقي، ومن الجلي أن نيتشه الذي تمرد على الحركات الدينية والمسيحية على الخصوص، تعلم منها ذلك الاسلوب التبشيري والاغرائي في جلب الكثير من الأتباع، لهذا كان من مسميات أحد كتبه "الفجر"10 والفجر هو دائما فجر لدعوى دينية أو تبشيرية أو فجر لحركة ايديولوجية أو اصلاحية...وهو بهذا يدشن في داخل الفلسفة الدعوى التبشيرية العلمانية، على انقاض التبشير الديني التقليدي الذي يدعو للإله الواحد.

ولكن ملاعبة الوجدان والعاطفة يسبقه لعب بمخيلة القراء من خلال الاستعارات التي توحى إلى المعنى بالصور المستثارة من خلال الملفوظ الإستعاري الذي لا يتحدد في هذا المعنى المحتمل أو ذاك أو يشير لهذه المرجعية الواقعية أو

تلك بل إن معنى الاستعارة معطى في الخيال فقط " فهي تتعلق بتحول المعنى إلى مرجعية التخيل أي أن التخيل إذا جاز التعبير تكافؤا مضاعفا من جهة المرجعية، يتوجه إلى الخارج، ربما إلى لا مكان. لكن، كونه يحدد اللامكان بالمقارنة مع أي واقع بإمكانه أن يتطلع بشكل غير مباشر إلى هذا الواقع"11.

وهكذا مهما سعى القارئ إلى إدراك الفحوى الحقيقي لمعنى الشذرة النيتشوية، يجد نفسه يجرب في خياله احتمالات من المعنى، لا تشير إلى المعنى الحقيقي بقدر ما هي إلا إحدى معاني المعنى المتشذر من النص في الخيال\*\*\*. من هنا يمكن فهم صدور هذه القراءات العديدة والشروحات الكثيرة والتأويلات المستمرة للمتن النيتشوي، فكون هذا المتن إستعاري نشيدي فهو يخلق لنفسه دائما، مؤولين وشراح جدد، ومراجعات وقراءات جديدة تكون تابعة لهذا النص الأصلي. وها هو أحد أساليب نيتشه " إن كثرتنا يوجد حيثما تكون خلايا نحل معرفتنا . لهذا نحن دوما أثناء الطريق، ولدنا حيوانات مجنحة ، جماعة لعسل الروح، لا نهتم حقا من القلب الا بأمر واحد - أن نحمل الى البيت شيئا ما أما فيما يتعلق بالحياة ب" ما عشناه من تجارب مزعومة، -...لم تكن قلوبنا حينئذ هناك - ولا حتى أذاننا بل مثل من ألته الآلهة وغرق في قاع نفسه ومن دقت الساعة في أذنيه دقا أزيئا ، اثنتي عشر دقة ، بأن النهار قد انتصف واستيقظ فجأة وسأل نفسه: " ما الذي دق على وجه التحديد؟" كذا نحن ايضا نحك أذاننا أحيانا بعد الأوان ونتساءل..12.

المرح، الشعور بالقوة، الإبتهاج، النشوة: انفعالات لا يعبر عنها إلا بأسلوب راقص، مختلف عن أساليب الفلاسفة، أسلوب يحمل في ضمنه القدرة على حمل نشوة وسكر الفيلسوف، لأن" ثمة ما يعرف بسكر التصورات ivresse concepts فثمة نوع من مسكر يتدفق مع الفكر ويتأجج ويتفشى وينتقل إلى القارئ ثانية على شكل رؤى وبانوراما، إنه سكر يركز على كثافة التراكيب الذهنية وتعقدها وصفائها وتحصنها أيضا"13. بل إن الموسيقى يجب أن تتجلى في الأسلوب فالفلسفة تشبه الموسيقى أما الموسيقى التي يحيا نيتشه فيخبرنا عنها " إنني أريدها بهيجة وعميقة مثل عشية يوم من أيام أكتوبر، أن تكون فريدة من نوعها جذلي ورقيقة، أنثى صغيرة وحلوة في عهرا وملاحظتها "14 النشوة تثير المخيلة لتبتكر الصور التي تتجلى فيها المفاهيم، مفاهيم عميقة وفريدة من نوعها تأسر القارئ. وهكذا يتضح ان الفلسفة النيتشوية، قد وظفت الخيال الإستعاري، لا لشيئ سوى بحث عن خلود زماني لهذه الفلسفة، معتقدة ان خلود الفكرة يرجع إلى شكلها الأسلوبي الذي عرضت به،



فالعقل يبقى عاجز عن إدراك المعنى الحقيقي للإستعارة "لست أدري أين تبدأ الجملة التي تحل لغز كل هذه الإيحاءات ..ما إن كان علي ان أقرأها من هنا أم من هناك"15

### 3 – الفن في الفلسفة :

تقودنا التحليلات السابقة إلى طرح تساؤلات مشروعة وهي: كيف كانت فلسفة نيتشه ممكنة ؟ هل اتبع منطق واستراتيجية ما، وقواعد معينة في إنتاج فلسفته، هل هناك خاصية ما تمتاز بها هذه الفلسفة عن غيرها؟. من الواضح أن فلسفه نيتشه ذاتها ترفض كل تقليد ونسخ، وقد قال عندما تناول قضية تدريس الفلسفة في ألمانيا، منتقدا الطريقة السائدة التي تقوم على تدريس المنطق الكانطي والهيغلي المتصلب: " لا يمكن البتة أن نقصي الرقص بجميع أنواعه من كل تربية راقية، إجادة الرقص بالقدمين وبالأفكار وبالكلمات – هل سيكون علي أن أضيف بأنه على المرء أن يجيد الرقص بالقلم أيضا "16. ومما لاشك فيه أن التأويل المحتمل لكلمة الرقص الواردة في هذا النص هو إقتدار الخيال على الإنتقال بين المتناقضات والاطراف المختلفة .

من المؤكد أن الرقص في الأسلوب الفلسفي هو هذا الأسلوب الشعري الذي يستعين بالتشبيهات وبالإستعارات وبالتمثيلات الحسية ، تكون الفلسفة بهذا المعنى ذات طابع شعري ولكنها ليست بالشعر، إذ أن الدلالة التي ينطوي عليه المفهوم النيتشوي وكثافتها لا تسعها اللغة الفلسفية المعهودة، وهذا التعبير الإستعاري والإنشادي عن المحتوى المعرفي، مرده محاولة القطع مع لغة العقل، اللغة التي تنمهي في رأي نيتشه باللوغوس، لغة هذا العقل ساهمت في نفي الإنسان وفي تكريس قيم الانحطاط. إن رفض اللوغوس يعني أن يرفض معه اللغة التي عبر وكتب بها العقل، معارف وفلسفات كرسست النفي والإغتراب.. أما عن بديل عن هذه اللغة، فيتحدث نيتشه عن اللغة الغريزية، الديونيزية التي تتجلى في شبكة من الإستعارات والتشبيهات لتعبر عن الفكرة. يماثل نيتشه بين الأسلوب الفلسفي والرسم، بل إن أقوى تعبير عن الفكرة يكون من خلال رسمها، أي اختيار الألوان المناسبة في التعبير عن دلالتها المختلفة كاللوحة التي تولد من انفصال الألوان وتحويلها 17 .

لا يمكن فصل الأسلوب الفلسفي عن المفاهيم النيتشوية المركزية: النشوة، الرقص، الفرح، البهجة، الفن الديونيزي، السطح / العمق في مقابل : العقل والأخلاق، المنطق، الرعاع، النسق. لا يفكر نيتشه إلا من خلال نقده للعقل كما عرفته الميتافيزيقيا الغربية، والأسلوب هو شيء من المقاومة ضد هذا العقل، الذي استبد بالمنطق وبالجدل وإذا كانت اللغة المعهودة تتسم بالوضوح وبالبساطة، فإن نيتشه يتبنى تلك اللغة الإستعارية التي تقاوم المنطق والوضوح والبساطة وتتجه نحو الغموض والتعدد" فإن هذا الإنغلاق للغة الشعرية على ذاتها يسمح لها بالتعبير عن تجربة خيالية<sup>18</sup> وهذه الفلسفة ليست إلا تفكير الفنان الذي يسكن عمق الفيلسوف: "إذ يزداد تبجيل الفنان للإنفعالات العنيفة يؤمن بالالهة والشياطين يرى في كل مكان من الطبيعة روحا، يبغض العلم، لا يستقر طبعه على حال ويطالب بتغيير الأوضاع التي لا تلائم الفن يطلب ذلك بعنف الاطفال وعسفهم"<sup>19</sup>

#### 4 - منطق المخيلة في فهم واقع الصيرورة:

يقودنا البحث إلى معرفة طبيعة المنطق الذي يفكر بواسطته نيتشه والتي جعلت فلسفته تأخذ هذا الشكل الإستعاري والخيالي. المؤكد أن نيتشه تأثر بفكرة هيراقليطس المتمثلة في "الصيرورة"، على أن هذا الوجود تحكمه الصيرورة ولا غير. في مقابل، فكرة بارمنيدس في "الثبات" فالمنطق ليس إلا نتيجة لهذا التصور، يسعى ليحافظ على الأشياء والحياة والتاريخ في مسار ثابت ومطلق، إنه عدمية، يوقف حركة الحياة من الإستمرار والتجدد، ويختزلها في صورة وقواعد جافة. بينما، فكرة الصيرورة بوصفها تحول وتغير، تبعث الحياة لتتجدد بإستمرار بفعل تناقضات طبيعة الوجود نفسه.

إن المخيلة بما تتصف به من سهولة انتقالها بين العناصر المتباعدة وتجميعها لاطراف المختلفة وطبيعتها المتقبلة للمتناقضات وما تمتاز به من تلقائية في إنتاج تراكيب بين الصور المتناقضة ، قادرة على إحتواء وهضم منطق الصيرورة الذي هو أصلا منطق متناقض، وتتمكن المخيلة على أساس ذلك من فهم لامعقولية التناقضات التي تطرحها الحياة، أما كيف يفهم نيتشه الصيرورة ف" هي غريزة اللعب المستيقظة بدون توقف التي تحيي عوالم جديدة، إن الطفل يرمي دميته للحظة ولكنه ما يلبث أن يلتقطها منساقا وراء نزوته ولكن حين يبني فإنه يجمع

ويلعب ويؤطر بمنطق حسب تمفصلات داخلية" 20 . فالصيرورة في نظر نيتشه تقوم بمقام الإله الذي يخلق ويدبر، فليس هناك نظام غائي للكون، أو غاية من الوجود بل، كل ما هنالك لعب عفوي وبرئ، نابع من الصيرورة التي تتجلى في طبيعة الأشياء يتعلق الأمر بالصيرورة البريئة التي تصير الوجود، عن طريق لعب عفوي، ومن دون عقل أو نظام، إلى وجود يتغير ويولد من جديد، بغير غاية، ومن دون قواعد محددة تضبط هذه الولادة والتجدد . ولكن هل يمكن أن يفهم ويستوعب العقل الارسطي أو العقل الكانطي طبيعة الوجود القائمة على الصيرورة؟ الجواب، طبعاً: كلا، لأن منطق الصيرورة تحولي ومتغير ويلعب بكيفية بريئة، ويتطلب منطقاً آخر غير منطق العقل المعهود. إن منطق المخيلة، التي لها القدرة على التحرك والقفز، بين طرف وآخر. ولها خاصية التأليف في وحدة واحدة بين الصور المتناقضة هي التي تفهم المنطق المتقلب والمتناقض للصيرورة.

إذا سلطنا الضوء على جانب إنهار نيتشه بالفلسفة اليونانية فلا يمكن تفسيره إلا بإعجابه الشديد بعبقرية مغيلتهم. . إن ما جعل الفلسفة اليونانية تعرف ذلك الإزدهار وتلك الفتوحات والإكتشافات في ميدان المعرفة، إن هي إلا خاصية تختلف عن خاصية العقل الذي يحسب ويقدر، وسيره لا يكون إلا بطيئاً لأنه محكوم بالخطوات المنطقية الصارمة، لذلك يطرح نيتشه سؤال حول ماهية هذه العبقرية: " ما الذي يحمل إذن الفلسفة بهذه السرعة نحو هدفها ؟ أي تتميز فقط عن الفكر الذي يحسب ويقدر، بتحليقها السريع الذي يقطع مسافات طويلة ؟ وتكون إجابته " كلا إذ أن ما يجعلها خطأها مجنحة، إن هو إلا قوة غريبة لا منطقية، المخيلة. إن الفلسفة المحمولة بالمخيلة تتقدم قفزاً، من إمكانية إلى أخرى" 21. ينطوي هذا القول على رفض الفلسفات الميتافيزيقية التي لا تقوم براهينها إلا وفق استدلالات برهانية صارمة وبالتالي تضيع الهدف من وجودها، في المقابل يفتح التأويل النيتشوي المجال للمخيلة للتفكير في الفلسفة .

وإذا تكلمنا من منظور آخر، فإن الفيلسوف الحقيقي في نظر نيتشه هو المؤمن بالواقع الحقيقي الذي هو واقع صيرورة، إذ ليس هناك مفهوم ثابت يدعي لنفسه فهم الواقع، بل هناك مفاهيم متناقضة ومتغيرة، تعبر عن حقيقة الحياة. فحتى المفاهيم والأفكار الفلسفية بدورها تخضع لمنطق التغيير. والعقل السقراطي الذي أسس للميتافيزيقيا الغربية لا يستطيع أن ينفذ في كنه وحقيقة الصيرورة. وحدها المخيلة بما لها من براءة وحرية وحس عبقري وتلقائية، وبقدرتها على تغيير الأقنعة

أن تفهم الحياة بوصفها تغير مستمر، بينما العقل الذي يؤمن بمقولات العلية أو السببية وبالأفكار القبلية الفطرية محجوب عن الحقيقة، إنه لا يمتلك فن القتال، وفن التموضع في تخنقات. ولا يمكنه أن يزوي في زوايا مبعثرة، كما أنه لا يستطيع أن يبعثر ذاته ولا أن يشتها. المخيلة على العكس من ذلك، تملك فنون التموضعات المختلفة والمواجهة في جهات متعددة، وبعثرة الذات على أماكن متباعدة. ولدينا نص في غاية الأهمية، يوضح لنا كيف اشتغلت مخيلة نيتشه في الفلسفة. يقول: " فمن أجل تحقيق مهمة قلب القيم كان، لأبد علي ما أظن، من توفر قدرات تفوق بكثير ما كان بالإمكان أن يجتمع لدى شخص واحد، وبصفه أخص كان لأبد من توفر قدرات متناقضة فيما بينها، لكن دون أن يكون لها أن تدخل القيم، على بعضها، وأن تدمر بعضها البعض. ترتيب القدرات بحسب الأولوية والأهمية. إتخاذ مسافة، فن التفرقة دون إحداث بلبلة، عدم مصالحة أي شيء مع آخر، تعددية هائلة. ومع ذلك تقوض لكل ما يمكن أن يكون فوضى. تلك كانت الشروط الأولية "22 ومن دون شك لا يقوم بهذا التفكير سوى المخيلة التي لها سرعة التحرك وتمثل المتناقضات وتغيير الأدوار.

وهكذا فإن نيتشه يحاول أن يفكر بالخيال في داخل الفلسفة، يستخدم خاصيتها القائمة على التموضع والتحرك بين المتناقضات حيث تجتمع لديها كل الاطراف في وحده واحدة، وتجمع الأزمنة الثلاثة في زمنية منصهرة، وتركب بين عناصر غير قابلة للتركيب حيث تبدو انتقالاتها بين هذا وذاك، من منظور العقل والمنطق مخالفة للمعقول، ولكن، لم يكن الخيال النيتشوي بريئا. إن تقويض ونقد المشروع الغربي التي تأسس على المنطق الارسطي وتدعم بتبرير كانطي، لن يتم بعقل مماثل له ويشبهه، في آليات التفكير، لأن هذا ليس إلا انتاج للعقل نفسه، يتجه نيتشه بالعكس من ذلك: أن ينتقد المنطق والعقل بالإستعارة والخيال. ولاشك أن الإستعارة النيتشوية كانت ضمن المشروع النيتشوي في تجديد الخطاب الغربي حول القيم، فلم يكن الخيال بريئا من فلسفته ، لقد كانت له وظيفة معرفية وتبشيرية فأما الوظيفة المعرفية أن يكون أداة في نقد العقل الغربي منذ جذوره السقراطية، ونقد المنطق المؤسس له فاسحا المجال للوظيفة التبشيرية فقد كان المشروع النيتشوي مشروعا تبشيريا بفكر وقيم جديدة فهو بذلك يستخدم الخيال كأحد الاساليب الإغرائية للإقناع وجلب الأتباع .

## الهوامش:

\*يقول نيتشه: "إن من يعرف كيف ينعم بأنفاس كتابتي يشعر بأنها أنسام السمو ونفحات القوة ..إن في أسلوب رقصا ورمحا وطعنا، ولغتي سخية كريمة وعصبية عنيفة إنه أسلوب... السيف بسرعته ولمعانه " انظر: ول ديورانت، قصة الفلسفة: من افلاطون الى جون ديوي، ترجمة: فتح الله محمد مشعشع ط6(بيروت: مكتبة المعارف، 1988)، ص548.

1-فريدريك نيتشه، غسق الأوثان أو كيف تتعاطى الفلسفة قرعا بالمطرقة، ترجمة: على مصباح (بيروت: منشورات الحمل، 2010 )، ص 28.

\*\*الشاعر لا يقدم براهين وأدلة وبراهين. بل، يقدم لنا رؤى وصور تخيلية وومضات مقتضبة حول ما كشف له ، البرهان ليس من مهمة الشعربل من مهمة الفلسفة. وظيفة الشاعر: تقديم صور كثيفة من مخيلته حول ما تراءى له من فهمه، لزاوية من زوايا الوجود. وهو بهذا، يشتغل على الاستعارات والبلاغة، وعموما على اللغة التي تقول الصورة ولا تقول المفهوم. يعبره اوضح: يشتغل الشاعرعلى صياغة استعارة تختصر ما يقوله العقل في صفحات، من البراهين. الكثير من الفلاسفة يصنفون نيتشه ضمن زمرة الشعراء ويخرجونه من دائرة الفلسفة، وربما يكون حكم وول ديورانت صحيحا عندما قال " أن نيتشه لا يحاول إقامة الدليل ، بل يعلن أفكاره ويكشفها، ويقدم لنا خيالا، لا منطقا، ويظفر بنا بخياله أكثر من منطق. وهو لا يقدم لنا فلسفة وشعر فحسب، بل إيمانا جديدا وأملا جديدا ودينا جدا، إن افكاره وأسلوبه تكشف عن انه ابن الحركة الرومانتيكية " انظر: ول ديورانت، قصة الفلسفة من أفلاطون إلى جون ديوي، ترجمة: فتح الله محمد مشعشع، ص549.

2 - فريدريتش نيتشه، في جينياالوجيا الأخلاق، كتاب سجالي، ترجمة: فتحي المسكيني :مراجعة محمد محبوب (تونس: دار سيناترا، 2010)، ص 54.

3- فريدريك نيتشه، العلم الجذل، ترجمة: سعاد حرب (بيروت: دار المنتخب العربي، 2001)، ص176.

4- أودونيس، الصوفية والسوريالية ط3(بيروت: دار الساقى (دت))ص40.

5-فريدريك نيتشه، مولد التراجيديا، ترجمة: شاهر حسن عبيد ( اللاذقية، سوريا: دار الحوار، 2008 ) ، ص 85، 86 .

6 - فريدريك نيتشه، الفجر، ترجمة: محمد الناجي ( الدار البيضاء، المغرب: إفريقيا الشرق، 2013 ) ، ص 44.

7- نيتشه، الفلسفة في العصر المأساوي الإغريقي، تقديم: ميشال فوكو، ترجمة: سهيل القش، ط2 ( بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، 1983)، ص 39

8- فريدريك نيتشه، هكذا تعلم زرادشت، ترجمة: فليكسي فارس(القاهرة: مؤسسه هنداوي للتعليم والثقافة، 2014)، ص51، 50.

9- بول ريكور، الاستعارة الحية، ترجمة:محمد الولي، مراجعة: جورج زيناتي (بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، 2016 ) ص، 51.

- 10- فريدريك نيتشه، الفجر، ترجمة: محمد الناجي (الدار البيضاء، المغرب: دار إفريقيا، 2013).
- 11- بول ريكور، من النص الى الفعل، ص170.

\*\*\*بالنسبة لنيته يمكن للمعنى أن يعني، وأن يكون منبسطاً في نشيد يقول: " الإيقاع بدء، وفي النهاية القافية. وللروح الموسيقى دائماً مثل هذا التفريد الرباني يدعى نشيداً، وبأكثر إيجاز قيل: النشيد يعني "كلاماً للموسيقى"، حكمة على صعيد آخر، قادرة على السخرية، على الهديان، على التوثب. أبداً ما تعلمت الغناء حكمة. الحكمة تعني: " المعنى محروماً من الغناء" هل اتجراً على اعطائكم من الاثنتين" انظر: فريدريش نيتشه، ديوان نيتشه، ترجمة: محمد صالح (بيروت: منشورات الجمل، 2005)، ص88.

12- كريستيان دوميه، جنوح الفلاسفة الشعري، ترجمة ريتا خاطر، مراجعة: جوزيف شريم (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2013)، ص 231

13- فريدريك نيتشه، هذا هو الإنسان، ترجمة: علي مصباح، (بيروت: منشورات الجمل، (دت))، ص 54

14- فريدريك نيتشه، إنسان مفرد في إنسانيته، الجزء الثاني، ترجمة: محمد الناجي (الدار البيضاء، المغرب: إفريقيا الشرق، 2002)، ص158.

15- فريدريك نيتشه، غسق الأوثان، ترجمة: علي مصباح، ص 96.

16- فريدريش نيتشه، في جينالوجيا الأخلاق، كتاب سجالي، ترجمة: فتحي المسكيني، مراجعة محمد محجوب (تونس: دار سيناترا، 2010)، ص 31

17- فريدريك نيتشه، إنسان مفرد في إنسانيته، الجزء الأول، ترجمة: محمد الناجي (الدار البيضاء، المغرب: إفريقيا الشرق، 2002)، ص 114.

18- بول ريكور، الاستعارة الحية، ترجمة: محمد الولي، مراجعة: جورج زيناتي، ص336.

19- كمال بومنيير، قضايا الجمالية المعاصرة (بيروت: منتدى المعارف، 2013)، ص104.

20- فريدريك نيتشه، الفلسفة في العصر المأسوي الإغريقي، ص 61 . 1

21- فريدريك نيتشه، الفلسفة في العصر المأسوي الإغريقي، ص 47.

22- فريدريك نيتشه، ها هو الإنسان، ص 58

### مراجع المقال:

- 1- أودونيس، الصوفية والسورالية ط3 (بيروت: دار الساقى (دت))
- 2- بول ريكور، الاستعارة الحية، ترجمة: محمد الولي، مراجعة: جورج زيناتي (بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، 2016)
- 3- بول ريكور، من النص الى الفعل، ترجمة: محمد برادة، حسان بورقيبة (الاسكندرية: عين للدراسات والبحوث، 2001)
- 4- نيتشه، الفلسفة في العصر المأسوي الإغريقي، تقديم: ميشال فوكو، ترجمة: سهيل القش، ط2 (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، 1983)

- 5 - فريدريش نيتشه، ديوان نيتشه، ترجمة: محمد صالح (بيروت: منشورات الجمل، 2005)
- 6 - فريدريك نيتشه، الفجر، ترجمة: محمد الناجي (الدار البيضاء، المغرب: إفريقيا الشرق، 2013)
- 7 - فريدريك نيتشه، غسق الأوثان أو كيف تتعاطى الفلسفة قرعا بالمطرقة، ترجمة: علي مصباح (بيروت: منشورات الحمل، 2010)
- 8 - فريدريتش نيتشه، في جينالوجيا الاخلاق، كتاب سجالي، ترجمة وقدم له فتحي المسكيني : مراجعة محمد محجوب (تونس: دار سيناترا، 2010)
- 9 - فريدريك نيتشه، هذا هو الإنسان، ترجمة: علي مصباح، (بيروت، منشورات الجمل، (دت))، 10 - فريدريك نيتشه، هكذا تعلم زرادشت، ترجمة: فليكسي فارس (القاهرة: مؤسسه هنداوي للتعليم والثقافة، 2014)
- 11 - فريدريك نيتشه، إنسان مفرط في إنسانيته، الجزء الاول، ترجمة: محمد الناجي (الدار البيضاء، المغرب: إفريقيا الشرق، 2002)
- 12 - فريدريك نيتشه، إنسان مفرط في إنسانيته، الجزء الثاني، ترجمة: محمد الناجي (الدار البيضاء، المغرب: إفريقيا الشرق، 2002)
- 13 - فريدريك نيتشه، العلم الجذبل، ترجمة: سعاد حرب (بيروت: دار المنتخب العربي، 2001)،
- 14 - فريدريك نيتشه، مولد التراجيديا، ترجمة: شاهر حسن عبيد (اللاذقية، سوريا: دار الحوار، 2008)
- 15 - كمال بومنيير، قضايا الجمالية المعاصرة (بيروت: منتدى المعارف، 2013)،
- 16 - كريستيان دوميه، جنوح الفلاسفة الشعري، ترجمة ريتا خاطر، مراجعة: جوزيف شريم (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2013)
- 17- ول ديورانت، قصة الفلسفة: من افلاطون الى جون ديوي، ترجمة: فتح الله محمد مشعشع ط6 (بيروت: مكتبة المعارف، 1988)